أيّها الأصدقاء

تمهيداً لكلّ كلام،

في هذه الأيّام العصيبة التي نعيش فيها، قد يتساءل بعضُنا عن مسوّغ الإبقاء على طقسٍ نحتفل به كلّ عام. وفي هذه الأيّام العصيبة التي نعيش فيها، قد يتساءل بعضُنا هل من الحكمة في شيء أنْ نُسهب في الحديث عن التفوّق والامتياز، فيما تلاحقنا الأحداثُ المتسارعة وتضغط علينا. وما عسانا من جهةٍ أخرى أنْ نقول، وشرعةُ جامعة القدّيس يوسف تذكّرنا بأنّنا مُلزَمون بأنْ نحترم ضمن جماعتنا الجامعيّة، المذاهبَ السياسيّة كلّها وغيرَها من التيّارات التي يُمكن أنْ تقوم في عالمنا؟ ولكنْ كيف يَسعنا أنْ نلوذ بالصمت عندما نتذكّر أنّ موضوع الحرّية يشكّل حقّا إحدى قِيَمنا المرجعيّة، وأنّنا لا نستطيع في جامعتنا أنْ نتحدّث عن هذا المفهوم من دون أنْ نجرؤ على تجسيده في واقع مجتمعٍ تمّ منذ زمنٍ بعيدٍ إرهاقُه؟

ففي هذه الأيّام العصيبة التي نعيش فيها، لا يَسعُنا إذاً أنْ نلوذ بالصمت. لقد أعلن سَلَفي مراراً من هذا المنبر أنّ أولى خطوات الحرّية التي يجب أنْ نُعيد اكتشافها في لبنان تتحقّق من خلال تحرير الأرض. ولكنْ لا يَسعُنا أنْ ننسى أنّ دون ذلك شروطاً أخرى حتى يتمكّن كلّ فردٍ أنْ يؤدّي دورَه كمواطنٍ حرّ في هذا البلد. فيتعيّن عليكم اكتشافُ هذه الشروط وإعلانُها. ويتعيّن عليكم أنْ تقوموا بكلّ ما يلزم حتّى توضع الأسسُ الحقيقيّة لمجتمعٍ حرٍّ ومسؤول. وإنّي أدرك أنّ هذا الأمر يقتضي منكم أن تضطلعوا بمهمّةٍ لم تكن بالتأكيد في الحسبان.

أيّها الأصدقاء،

في هذه الأيّام العصيبة التي نعيش فيها، علينا أنْ نكتشف مجدّداً أنّ الحرّية، شأنها في ذلك شأن التفوّق والامتياز اللَذَين سأحدّثكم عنهما بعد قليل، هي مفرداتٌ لا بدّ لها أنْ تحملنا على الانخراط في أعمالٍ شاقّة. فنحن جميعنا مَعنيّون. وعلينا أنْ نفتح أعيننا وأنْ نقوم بكلّ ما ينبغي حتّى لا يبقى التيّارُ الرائع الذي يحرّك شبيبة هذا البلد وقفاً على أفرادٍ معدودين، بل يُصبح الهمّ الشخصيّ لكلّ واحدٍ منّا في سبيل التزامٍ جديد.

حَضَرات السيّدات والسادَة الأساتذة،
وممثّلي الهيئة الإداريّة، والطلَبة، ورابطات القدامى،
أيّها الأصدقاء،

إنَّ جامعتنا هي كائنٌ في منتهى الغرابة. فهي تَجمُّعٌ من العناصر التي تُحيلنا بطريقةٍ لا مردَّ لها إلى معطياتٍ مفارِقة. فبعد أنْ نَشأتْ من مؤسّساتٍ متعدّدة لها تاريخها الخاصّ فضلاً عن عاداتها وتقاليدها المميَّزَة، تخضع حاليّاً، بفعل خياراتٍ قديمة العهد، لتطوّرٍ متواصل نحو المركزيّة. وبعد أنْ وُلِدَتْ في صميم الجامعة الفرنسيّة، ثمّ توطّدتْ كجامعةٍ لبنانيّةٍ فرنكوفونيّةٍ خاصّة، ها هي تنخرط اليوم في نظام الأرصدة الأوروبيّ، ولم تعد تتردّد في الوقت نفسه في مدّ يدها إلى زميلاتها الجامعات في القارَّتَين الأميركيّة وحتّى الآسيويّة من غير أنْ يُفضي بها ذلك إلى الرغبة في التخلّي عن رسالتها الإقليميّة ودورها داخل اتّحاد الجامعات العربيّة. وهي تعمل، باعتبارها جامعةً تمَّ تصوّرُها وإنشاؤها في خطّ التربية اليسوعيّة، على تنشئة مَن يتهيّأون ليصبحوا نُخَب هذا البلد وهذه المنطقة، تنشئةً شاملة، ولكنّها تحرص باستمرار على أنْ تشمل هذه التنشئة، قدر المستطاع – ورغم مقتضيات الأقساط التي تبقى دائماً مع الأسف باهظةً جدّاً – الفئاتِ الاجتماعيّةَ كلَّها والطوائفَ كلَّها أيضاً ؛ إنّها تُعدُّ الكوادرَ، ولكنّها تأبى أنْ تكون معقلاً لفئةٍ خاصّةٍ من الناس.

هذه هي حال جامعتنا، وهي تهدف، انطلاقاً من هذا المنظور، إلى أنْ تغدو للجميع، ما يُعرَف اليوم بـ «قطب التفوّق والامتياز». هذا هو على كلّ حال ما لا ننفكّ نُعلنه منذ أن خرجنا من صعوبات الحرب المريرة والسنوات التي أعقبتها؛ وهذه هي المرتبة التي تمكّنت بعضُ مؤسّساتنا من بلوغها رسميّاً : - فإنّي أقصد طبعاً مختبر الجينات، بفضل الاعتراف الذي خصّته به الوكالةُ الجامعيّةُ للفرنكوفونيّة، وأقصد أيضاً كرسيّ جان مونيه (Jean Monnet) الذي منحته المفوّضيّةُ الأوروبيّة هذه السنة شهادة «مركز تفوّق وامتياز»-. علينا في الواقع ألاّ نخدع أنفسنا، فالسباق نحو التفوّق والامتياز ليس بالأمر اليسير. فلقد وصف، منذ زمنٍ ليس بالبعيد، أحدُ مديري الأبحاث في المجلس الوطنيّ الفرنسيّ للأبحاث العلميّة، فكرة أقطاب التفوّق والامتياز «الطنّانة والقائمة على مبدأ الاستثناء» بـ «المثيرة للسخرية»، وأردف قائلاً: «لسنا بحاجةٍ إلى أقطاب تفوّقٍ وامتياز، بل إلى **أقطاب للتساؤل** قادرةٍ على استثارة الذكاء، والخيال، وعمل الباحثين ...»[1]. وأوضح تجمُّع رؤساء الجامعات بدوره، في هذا البلد نفسه، وفي الفترة نفسها أنّ : «التفوّق والامتياز لا يعملان وفق مبدأ الكلّ أو اللاشيء: فلا تستطيع إحدى المؤسّسات أنْ تكون متفوّقةً وممتازةً في المجالات كلّها، وعليها أنْ تحدّد خياراتها، بعددٍ يتفاوت كِبَراً أو صِغَراً، بناءً على قدراتها. فيمكن بالتالي أنْ يتحقّق هذا التفوّق والامتياز في مؤسّسةٍ صغيرة الحجم، في مجالٍ محدّد». (www.cpu.fr.21octobre2004)

وإنْ كانت الإحالةُ الأولى التي ذكرناها تثير اهتمامنا فقط بسبب أسلوب الإقناع المتّسم بشيءٍ من التحدّي الذي تعتمده - أَوَ ليس قطب التفوّق والامتياز وقطب التساؤل، في حقيقة الأمر، صنوَين تقريباً ؟-، فإنّ الإحالة الثانية قد تبدو في نظرنا أهلاً لاهتمامٍ أكبر، لأنّها تربط قطب التفوّق والامتياز ببعض عناصر مجموعةٍ من المجموعات : كمختبرٍ، أو كرسيّ... وفي هذا المنظور الأخير، نربط المفهوم المقصود بـ «الوزن العلميّ» الذي حازه هذا العنصر من جرّاء اعترافٍ دوليّ حصل عليه. ولكن ألا يمكننا أنْ نسعى إلى ما هو أبعد شأواً ؟

---

(١) *Libération*, 28 octobre 2004, article de Michel FREYSSENET in pages « Rebonds ».

عندما نقول إنّ جامعتنا تهدف إلى التفوّق والامتياز، فليس المقصود بذلك هذا «الوزن العلميّ» الذي أشرنا إليه أعلاه، بل المقصود بالأحرى المسيرة التي نقبل الانخراط فيها، وقوامها في الوقت نفسه مراجعةٌ نقديّة متواصلة وتقييمٌ مستمرّ، وتطلّبٌ جادّ للجودة وتأصّلٌ راسخٌ في قِيَم، من شأنها أن تعني للجميع – على المستويَين الإقليميّ والدوليّ – حرصَنا على التفوّق والامتياز. وقد وصف الفيلسوف جاك داريدا (Jacques Derrida)، الذي توفّاه الله منذ أمدٍ قريب، ما ينبغي أنْ تكون عليه كلّ جامعةٍ، بأنّها «مخزونٌ لا حدودَ له من النقد الذاتيّ ومن القابليّة للتحسّن».

يبقى أمامنا آنئذٍ أنْ نحدّد المحاور الكبرى التي علينا أنْ نعمل بمقتضاها حتّى تحافظ مسيرة التفوّق والامتياز هذه على حيويّتها، وأنْ نحدّد المبادئ الأساسيّة التي علينا أنْ نبلور بمقتضاها نشاطاتِنا في المستقبل. وهنا أصِلُ إلى ما سأسمّيه «أعمدة التفوّق والامتياز».

سأعدّد هذه الأعمدة، فإذا هي سبعة. إنّها سبعة، تيمّناً بأعمدة الحكمة السبعة. وإنّها سبعة، لأنّنا بصدد الكمال الذي علينا أن نطلبه. وإنّها سبعة، لأنّه لا بدّ لنا على كلّ حال من ترتيب الأشياء والأعمدة، أو لأنّه قد يكون من الضروريّ تقليب الأمر على وجوهه السبعة قبل الحديث عن التفوّق والامتياز. أو لعلّنا، وقد أكّدنا أنّ الجامعة هي أنثى، بناءً على قواعد اللغة فحسب، نستطيع أنْ نتذكّر أنّ النساء اللواتي يرتدين في البرتغال سبع تنانير سيحظين حتماً بالسعادة!

إنّها إذاً أعمدةٌ سبعةٌ يحسن بنا أنْ نرفعها، ومن شأنها في الواقع أنْ تُمكّننا من أنْ نعاين بطريقةٍ أجلى هذه التصوّرات التي يتأسّس عليها تطلّبُ «الجودة» الملحّ الذي يُفرَض علينا جميعاً. إنّها أعمدةٌ سبعة، متفاوتة الأهميّة، ولكنّها جوهريّةٌ جميعُها. وفي مقدّمها، ما هو بمثابة نقطة الارتكاز الأولى، ويشكّل ميزتَنا الخاصّة، وهو وليد تاريخنا، ويدعم إرادتَنا. وتليه بعد ذلك العناصر التي تمكّن هذه المجموعة من أنْ تعمل، وهي : تعليمٌ يتّصف بالجودة يُسدى في محيطٍ مؤاتٍ، وحِرصٌ متواصلٌ على البحث، وحياةٌ طالبيّةٌ تتيح لكلّ فردٍ أنْ يحقّق ذاته بأبعادها كلّها، وشبكةُ تواصلٍ تمنح الجميع فرصةَ التعبير عن آرائهم وإسماعها، وحِرصٌ على التقييم المتواصل. وسينتهي بنا المطافُ أخيراً عند الأساسات الأعمق، فنعرّج على الأعمدة التي ستمكّن جامعتنا من أنْ تفرض نفسها بتفوّقها وامتيازها: أعني انفتاحها على

كلّ شيء وعلى الجميع، والإبداع المتواصل، والتجديد، والالتزام الاجتماعيّ والسياسيّ في هذا العالم الذي نعيش فيه. إسمحوا لي أنْ أستطرد هنا قليلاً فأقول إنّ كلمتي هذه تتزامن مع ظروف صعبة يمرّ بها لبنان. وهي تتيح لرئيس الجامعة الفرصة ليحدّد المهامّ الملقاة اليوم على عاتقها رغم كلّ شيء، في حين تقع على عاتق الطلبة، والأساتذة، والقدامى مسؤوليّة توطيد التزامهم ليبزغ أخيراً فجر لبنان الحرّ المستقلّ. ويبرز عندئذٍ الحِرص على ربط هذه العناصر كلّها، والعمل على أنْ تتعاضد هذه الأعمدة معاً، والسهر أخيراً على أنْ يتملّكنا شغفٌ مشتَرَك، هو شَغَفُ التفوّق والامتياز.

* * *

*

١- إنّ أوّل ما نستهلّ به حديثَنا، هو إذاً، وقبل أيّ أمرٍ آخر، ميزتنا الخاصّة. وهذه الميزة الخاصّة هي السِمةُ التي لا تُمَسّ وترافق مسيرتَنا من جيل طلاّبٍ إلى جيل، وتتيح لنا أنْ نحدّد موقعنا بصورةٍ جليّة في خضمّ هذا الخليط المعقّد والمتعاظم باستمرار من الجامعات المتعدّدة الأنماط. ويمكننا أنْ نرجع هنا إلى الدرس الافتتاحيّ القيّم جدّاً الذي ألقاه في معهد فرنسا (Collège de France) تيودور برشيم (Théodor Berchem)، صاحب الكرسيّ الأوروبيّ المُنشأ حديثاً، حتّى يتسنّى لنا أنْ نفهم بصورةٍ أجلى هذا الوجهَ من واقعنا. فيذكّر برشيم أوّلاً بما كانت عليه المهامّ الأساسيّة لكلّ جامعة، وهي: «أنْ تنقل إلى الجيل الجديد المعرفة المكتَسَبَة والقِيَم الحيّة، وأنْ تتقدّم معه في الوقت نفسه نحو ما هو جديدٌ ومجهول»[٢]. وينطلق من ذلك ليحدّد ميزة كلّ جامعةٍ، فيرى أنّها مدعوّةٌ إلى أن تكون حيّزاً للذاكرة والإبداع. ولكنّه يتابع تحليله مشدّداً على التغيير الكبير الذي طرأ على هذا المشهد من جرّاء قيام جامعة الجماهير من الطلبة. فلقد اضطرّت الجامعة بسبب ذلك إلى تلبية مقتضَيَين، مقتضى سوق العمل التي تتطلّب عامِلين على درجةٍ أكبر من الكفاءة، ومقتضى المجتمع الذي لا يُعنى إلاّ بقدرة اقتصاده على المنافسة التقنيّة.

(٢) Theodor Berchem, *Tradition et Progrès. La mission de l'Université.* Collège de France/Fayard, Coll. « Leçons inaugurales », mai 2004.

فاستحالت الجامعة مجرّد «مصنع للمعرفة» بائس. ثمّ نشأ من جرّاء ذلك انزعاجٌ حقيقيّ، أدّى إلى عودة الحديث مجدّداً عن «الثقافة». ومردّ ذلك إلى أنّ الجامعة كما يتصوّرها الكثيرون، لا يمكنها أنْ تكون مجرّد معملٍ يُنتج مِهنيّين محدودي الفكر؛ فالمطلوب منها إعادة اكتشاف الوظيفة الثقافيّة التي يتعيّن عليها أنْ تضطلع بها أيضاً، وهي تتجسّد أوّلاً من خلال انفتاح الاختصاصات بعضها على بعض، ومن خلال برامج تنشئة تأخذ في الحسبان كلّ ما يمتّ إلى الثقافة العامّة بصِلة. إنّ هذا التطوّر المنشود لَصَعبٌ، وإنّ الجامعات الأوروبيّة التي تواجه هذه الأزمة لا توشك على تحقيقه في القريب العاجل.

هذه هي إذاً المسيرة التي انتهجتها الجامعات التي تنتمي إلى هذه المجموعة الأوروبيّة. وتلك ليست، بطبيعة الحال، مسيرتنا نحن. فلقد حرصَت جامعة القدّيس يوسُف دوماً، وهي ملتزمةٌ التزاماً قويّاً بشرعتها، على أنْ يتألّف ما هو جوهريٌّ في نظرها، على قدم المساواة، من المعارف التي تنقلها، والقِيَم التي تريد أنْ تُجسّدها، والطالب الذي يتعيّن عليه أنْ يصبح على قدرٍ أكبر من الاستقلال والمسؤوليّة. ولئن ازداد عدد طلبة جامعتنا وما انفكّ يزداد، فإنّنا أمام ظاهرة نستطيع السيطرة عليها، ولسنا نواجه تحوّلاً أساسيّاً كالذي واجهته جامعاتٌ في أماكن أخرى. ولكنّ تضخّمَ أعداد الطلبة هذا من جهة، وحِرصَنا من جهةٍ أخرى على ألاّ تتوقّف وتيرته المتصاعدة لم يتمّا بدون عواقب، وحَمَلانا على ايلاء مسألة الملاءمة بين الاختصاصات التي نؤمّنها وسوق العمل، المزيدَ من الاهتمام. ولكنّ هذا المنظور «الاقتصاديّ» لم يكن ليُنسينا البُعد «الأنسيّ» في رسالتنا. فيجب أنْ يبقى هذا الأخير العمود الأساسيّ في بنياننا وأنْ يحملنا، في كلّ مرّةٍ نُعيد النظر في برامجنا، وفي كلّ مرّةٍ نساعد طلبتنا في تحديد مسارهم، على أنْ نبذل قصارى جهدنا لنحافظ على مقدارٍ كبيرٍ من الانفتاح. فإنّ من شأن هذا الانفتاح أنْ يُتيح للطالب اكتساب قدرة أكبر على التكيّف المِهْنيّ، – فلا نُعِدَّنَّ أفراداً مقيّدين بإمكانيّة عملٍ وحيدة –، ومن شأنه أيضاً أنْ يتيح له اكتساب القدرة الفعليّة على ممارسة الثنائيّة الثقافيّة حسبما تقتضيها شرعتنا: فلا ينبغي أنْ يحول انفتاحُ طلبتنا على الحداثة الغربيّة دون تعرّفهم العالم العربيّ بأبعاده كلّها معرفةً أفضل.

٢- هذه هي النقطة الأولى التي كان علينا أنْ نشدّد عليها، وهي عمود جامعتنا الأوّل في مسيرتها نحو التفوّق والامتياز. أمّا العمود الثاني فيقودنا إلى ما يستأثر باهتمامنا بصورةٍ خاصّة منذ أن اعتمدنا في العام الماضي نظام الأرصدة الأوروبيّ، والمقصود بهذا العمود قدرتنا على تقديم تعليمٍ مُتّصِفٍ بالجودة. وينطوي هذا الطموح في الواقع على عددٍ كبيرٍ من الشروط التمهيديّة، وهي مهمّةٌ كلّها.

وفي طليعة هذه الشروط تطلّبُ أوّل يقضي باعتماد برامج ومسارات تليق بجامعةٍ طليعيّة، تقوم بوضعها فِرَقُ عمل. وهذا يستدعي منّا تفكيراً مليّاً في الاختصاصات المعنيّة، وفي العناصر الجديدة التي تُغنيها. وهو يستدعي منّا أيضاً الاهتمام بتنظيم الموادّ تنظيماً يُتيح للطالب أنْ يفيد في نهاية المطاف من المرونة المِهَنيّة السليمة التي تحدّثنا عنها سابقاً. وإنّه لَمِن الأهميّة القصوى بمكان أنْ نفكّر، من هذا المنظور، في العلاقات التي يمكنها أنْ تقوم بين الاختصاصات المختلفة. إنّ اعتبار المرونة المِهنيّة غايةً للطالب، يقودنا بالتأكيد إلى الالتزام باعتماد تنشئة تعزّز تعدّداً للاختصاصات ولتداخلها، علينا باستمرار أنْ نفكّر فيه ونُخضعه للمراجعة، وعليه ألاّ يقتصر على مجرّد ترتيباتٍ مرتَجَلة وسطحيّة. دعونا نُقارب هذه المسألة من زاويةٍ أُخرى: ندينُ أحياناً ما نشهده من إنشاء شُعَب تنشئةٍ تكرّر بعضها البعض. إنّ حلَّ هذه القضيّة لن يتحقّق بإلغاء هذه الشُعَب، بل بدعوة الاختصاصيّين في حقولٍ مختلفة إلى الالتقاء حول موضوعاتٍ مشتَرَكة، ومنها المخاطر، والبيئة، والعولَمَة، والبيوتكنولوجيا، والتسيير، والتراث، الخ - وإلى صياغة أقسام من برامج تنشئة هي باختصار دروس مشتَرَكة تمكّن الطلبة من أنْ يحدّدوا بصورةٍ أفضل موقعهم في داخل عالمٍ ذي طابَعٍ علميّ، له خصائصه المميّزة ويتعيّن علينا إعادة بنائه باستمرار. كان لا بدّ لنا من أنْ ننشئ اختصاصاتنا، فبات لزاماً علينا أنْ نجعلها تتفاعل. لقد ولّى زمنُ المعسكرات المغلَقة.

غير أنّ هذا التفكير الذي ينبغي لنا أنْ نقوم به في مادّة التنشئة نفسها التي نهدف إلى صياغتها لا بدّ أنْ يقودنا فوراً إلى تركيز انتباهنا على التعليم نفسه. إنّ طموحنا إلى تقديم تعليمٍ مُتّصِفٍ بالجودة، يعني قبولنا بإعادة النظر في طريقة التعليم نفسها، وذلك على صعيدَي المعرفةِ التي علينا أنْ ننقلها وعملِ الطالب الذي علينا أنْ نتابعه وندعمه. فهذا ما أسميناه «التربية الجامعيّة»، التي وافق أساتذة

جامعة القِدّيس يوسُف على إعادة النظر فيها معاً. فلا يسعنا إلاّ أنْ ندين لكم بالشكر على ذلك. إنّنا نرى أنّه ينبغي متابعة الإجراءات التي تحقّقت في هذا المجال سابقاً. فإنّه لَمِن المهمّ أنْ يتمكّن أساتذةٌ ينتمون إلى الاختصاصات كلّها وإلى الأجيال المختلفة من مناقشة مسائل أساسيّة، معاً، رغم ما بينهم من فروق. فإنّ من شأن ذلك أنْ يساعد الأساتذة، تدريجيّاً، ليتبيّنوا بوضوح أجلى السُبُلَ الآيلة إلى إعادة تأليف الدروس المقرَّرة، وأفضلَ السُبُل إلى خدمة الطالب، وهم يتابعون في الوقت نفسه القيام بالأبحاث، سواءٌ أتعلّق الأمر بالأعمال التي يقومون بها في إطار التنشئة المستمرّة أم بالأعمال التي يقومون بها في المختبر.

فإنّه من المسلَّم به – وهذا هو الجانبُ الثالث من المسألة التي نعالجها – أنّ تعليماً متّصفاً بالجودة لا يمكنه إلاّ أنْ يكون ثمرةَ البحث، وينبغي أنْ يصاحبه البحث. وإنّه لَمِن الطبيعيّ، في هذا الحقل، أنْ يتمّ توزيع العمل بين أعضاء الفريق الواحد، وأنْ يكون انصرافُ البعض منهم أشدّ إلى البحث، وانصرافُ البعض الآخر أشدّ إلى التعليم. فالمهمّ هو أنْ نحرصَ باستمرار على التعبير عن هذه الجودة التي نسعى إليها بفضل المنشورات التي يُلزَم الأساتذة كلّهم بها، عندما يكونون داخلين في المِلاك. إنّ عدداً من مؤسّساتنا يأخذ في الاعتبار ثمارَ الأبحاث هذه؛ فالمطلوب أنْ نُدرك أنّه يتعيّن من الآن فصاعداً على مؤسّساتنا كلّها التقيّد بذلك.

بقي علينا في هذا المجال أنْ نذكر جانباً بالغ الأهميّة في موضوعنا : وهو أنّه لا سبيلَ إلى تحقيق تعليمٍ أو بحثٍ يتّصفان بالجودة ما لم تتوفّر بيئةٌ ماديّةٌ مؤاتية. إنّ إثارة هذه المسألة تقودنا إلى مواجهة أوضاع مؤلمة. إنّنا نملك بالتأكيد أحراماً جامعيّة، ومساحاتٍ، وإنشاءاتٍ، ومجموعةً مهمّةً من التجهيزات المعلوماتيّة؛ غير أنّنا نشكو في المقابل من أحرام جامعيّة تضيق بأهلها، ومن مختبراتٍ عالية الجودة وقائمة في مبانٍ منكوبة، ونواجه طلباتٍ ملحّة ومسوّغة لا تلبّى على صعيد القاعات المخصّصة للطلبة والملاعب الرياضيّة ... إنّ هذا الواقع يشكّل ورشتنا القائمة، وهمّنا المقيم، ومصدر ألمنا. فعلينا، من أجل التغلّب على هذه العقبة، أنْ نكتشف المنجم السحريّ الذي سيتيح لنا فجأةً تمويل هذه المباني، والتجهيزات، وسائر الأدوات. إنّ الأقساط التي يسدّدها طلاّبنا تؤمّن دفع الرواتب والمصاريف اليوميّة، ولكنّها لا تستطيع أنْ تؤمّن ما يفوق ذلك. فنحن بحاجةٍ إلى قدامى متضامنين

يستطيعون مساعدتَنا، ونحن بحاجةٍ أيضاً إلى أصدقاء راغبين في الالتزام في هذا المجال.

إنّ الارتقاءَ إلى مرتبة التفوّق والامتياز، وتقديم تعليمٍ متّصِفٍ بالجودة، يقتضيان منّا أنْ نلتزم بهذه العمليّات كلّها، ويقتضيان منّا أنْ نحشدَ المئات من الإرادات الحسنة.

٣- أشرنا في ما سبق إلى النواقص في بنيتنا التحتيّة، وذكرنا المباني التي يحسن بنا أنْ نُنشئها لطلَبتنا. فإذا كنّا ننشد حقّاً التفوّق والامتياز، فإنّ العمود الثالث يعنيهم بالتأكيد، وسأُدرج أفكاري كلّها في شأن هذا الموضوع تحت عنوانٍ جامعٍ، فأتناول «الحياة الطالبيّة». ويمكننا أنْ نتناول هذا المفهوم الذي يشوبه شيء من الغموض من خلال ثلاث زوايا، معتبرين أنّه يتعيّن على جامعتنا أنْ تكون للطلبة مقاماً رفيعاً للتلاقي، ومقاماً رفيعاً للتعبير الشخصيّ والجماعيّ، ومقاماً رفيعاً للتنشئة على الديموقراطيّة. فالحياة الطالبيّة هي نوعاً ما هذه المعطيات كلّها. وهي تشمل فضلاً عن ذلك ما يمكننا أنْ نسمّيه هيئات الدعم المنظّمة التي تساعد الطالب في ممارسة الحياة الروحيّة، وفي التغلّب على المشاكل الاجتماعيّة، وفي إعادة النظر في التوجّه المختار، وفي تحقيق التواصل. وممّا لا شكّ فيه أنّه ينبغي الانطلاق من هذه المجالات. صحيحٌ أنّه تقع على عاتق الطلبة أنفسهم مسؤوليّة بناء حياتهم، ولكنّ من واجب الجامعة تأمين البنى الخفيفة التي تتيح لبعضهم أنْ يمارسوا إيمانهم، ولبعضهم الآخر أنْ يُعيدوا النظر في خيارهم أو أنْ يعدّلوا فيه، وذلك بمواكبة المشرفين أو المرشدين التربويّين، وتتيح للطلبة جميعهم أنْ يجدوا الوسائل التي تمكّنهم من التواصل أو من مواجهة المشاكل الاجتماعيّة التي لا بدّ لهم من مواجهتها. ومن أجل ذلك، فإنّه إلى جانب المرشدين الروحيّين الذين يؤمّنون في كلّ حَرَمٍ حضوراً لتنشيط الأمكنة المخصّصة للصلاة والحوار، والمشرفين والمرشدين التربويّين الذين عُيّنوا في كلّ مؤسّسةٍ لمساعدة الطلبة في متابعة مسيرتهم، أُنشئتْ في الجامعة دوائر، على صعيدَي الخدمات الاجتماعيّة وخدمات الإرشاد والتوجيه، من شأنها أنْ تتيح للطلبة الحصول أيضاً على العون والنصح في الأوقات الصعبة التي يضطرّون لاجتيازها. أمّا دائرة المنشورات والإعلام فتقدّم لهم عوناً من نوعٍ

آخر، في المناسبات المختلفة التي يُبدون فيها الرغبة بالتعريف بالنشاطات التي يقومون بها.

ولكنّ هذه الدوائر ستكون عديمة الجدوى إنْ لم تقمْ في إطار حياةٍ طالبيّة مليئة بالحيويّة. ففي نظر جامعتنا، ينبغي أنْ تكون أماكن العمل أماكن للحياة أيضاً. وهي أماكن يلتقي الطلبة فيها أيّاً يكن انتماؤهم الاجتماعيّ، أو الطائفيّ، أو السياسيّ. إنّهم يلتقون بالطبع في قاعات الدرس، ولكنّهم يلتقون أيضاً - وخير شاهدٍ على ذلك الفترة الإلزاميّة للتوقّف عن الدروس لجميع الطلبة عند الساعة الحادية عشرة والنصف - في الأحرام الجامعيّة، خارج قاعات الدرس، لتبادل الأحاديث، والنقاش، والترويح عن النفس. فلا بدّ هنا أنْ تكون كلّ أنواع التبادل ممكنة ومتاحة، ضمن الاحترام غير المحدود للمعادلات الشخصيّة كافّةً. فسيّان أن يكون الطالب غنيّاً أو فقيراً، من أهل اليمين أو من أهل اليسار، مسيحيّاً أو مسلماً؛ المهمّ هو التبادل الذي غدا متاحاً مع الآخر، واكتشاف هذا الآخر على حقيقته.

ولكن لا بدّ أيضاً أنْ يتمّ هذا التبادلُ من خلال تعبيرٍ صادقٍ، جماعيّ أو شخصيّ، حتّى يتسنّى له أنْ يكتمل. فتقع على عاتق الطلبة مسؤوليّة النجاح في تعزيز المئات من النشاطات التي تتيح لهم أنْ يعيشوا من دون معوّقات. وإنّ من شأن الرابطات القائمة أنْ ترعى هذا الجَيَشان. ولكنّ في متناولهم ما هو أبعدُ مدىً: فبإمكانهم، من خلال النوادي، والتجمّعات، وسائر التشكيلات، أنْ يعبّروا عن أنفسهم في الحقول المفضّلة لديهم، كالفنون، والنشاطات الإنسانيّة، والتسلية، والرياضة. فإنّنا نتيح بهذه الطريقة لِمَن اختاروا جامعَتَنا أنْ يعيشوا حياتَهم.

ولا بدّ في ختام هذا العرض من التشديد على البُعد الأخير من أبعاد الحياة الطالبيّة وهو جوهريّ في نظرنا : ينبغي أنْ تكون جامعتنا للطلَبَة مقاماً رفيعاً للتنشئة على الديموقراطيّة. فمعاً عليهم أنْ يتحاوروا وأنْ يكتشفوا صيَغ العيش في المجتمع التي يحتاج إليها لبنان حاجةً ماسّة. ولَئِنْ كان من المشروع أنْ تظهر على هذا المستوى اختلافاتٌ، فإنّه لَمِن الضروريّ أنْ يتمرّس الطلبة بعيش هذه الاختلافات. فإنّهم سيصبحون بواسطة هذا التمرّس شهوداً من أجل لبنان للسُبُل الجديدة الآيلة إلى ديمومته ونهضته. إنّ ما أقوله في هذا الصدد ليس بالتأكيد جديداً، لأنّ طلبة جامعة القدّيس يوسف يفيضون حياةً، على ما يعرفه الجميع. فمن

المهمّ أنْ يستمرّ هذا التحرّك ويتّسع. وعندي أنّه لن يتمكّن من بلوغ مداه الحقيقيّ، إلاّ إذا انتظم في شراكةٍ، ينبغي تحديدها، مع عددٍ كبيرٍ من الأساتذة والقدامى الذين يستطيعون أنْ يُغنوا هذه المجموعة بالمعرفة والخبرة.

٤- عندما تحدّثنا عن عمود التفوّق والامتياز هذا الذي تمثّله الحياة الطالبيّة، ذكرنا بطبيعة الحال الحوار، والتواصل. إنّ هذين المفهومَين لا يمكن أنْ يحلّ أحدهُما محلّ الآخَر. فعندما نتحدّث عن الحوار، نذكر التبادل الذي يجري بين شخصَين ويتيح لكليهما أنْ يفهم كلٌّ منهما الآخَر ويكتشفه بطريقةٍ أفضل. وسنعود بالتأكيد إلى هذا الجانب من الأمور. أمّا التواصلُ فهو مفهومٌ أوسعُ نطاقاً : فالأمرُ يتعلّق هنا بهذه الضرورة القصوى التي يشعر بها كلّ واحدٍ منّا بمفرده وكلّنا مجتمعين، لننقل هنا وهناك، وفي كلّ مكان، كميّة المعلومات التي نملكها، رغم المعوّقات كلّها. فالأمر باختصار يتعلّق بتركيز جهودنا على تعزيز شفافيّة مؤسّستنا. فإنّه من شأن هذه الشفافيّة أنْ تتيح لجامعتنا أنْ يتقبّلها ويفهمها أهلها ومَن هم غرباء عنها أيضاً. فإنّ التواصل بهذا المعنى هو عمودٌ من أعمدة التفوّق والامتياز اللذين ننشدهما.

فلا بدّ إذاً من أنْ يتملّكنا همُّ التواصل هذا، وعليه أنْ يُفضي بنا إلى الالتزام بسهرٍ متواصل، فلا يبقى في داخل الجامعة مكمنٌ سرّي يعمل فيه بعضُ المحظوظين. يتعيّن علينا أنْ يكون بمقدورنا الإعلان عمّا نفعله، وإذاعته على الملأ : النشاطات التي ننظّمها في كلّ واحدةٍ من مؤسّساتنا؛ والمحاضرون الذين نستضيفهم؛ والمداخلات التي تُقدَّم. فيتعيّن علينا أن نُظهرَ ذلك كلّه وأنْ نعلن عنه مسبقاً. وإنّي لأتمنّى أنْ تُكثر كليّات جامعتنا ومعاهدها من «النشرات الإعلاميّة»، حتّى يصبح كلّ ما يجري في كلّ مؤسّسةٍ من مؤسّساتنا معروفاً : أجل، سيغدو إذ ذاك كلّ شيءٍ شفّافاً.

غير أنّ هذا الاهتمام بالتواصل الذي تتولّى تيسيره دائرةُ الإعلام في جامعتنا، وهي الهيئة المركزيّة الوحيدة التي لا غنىً عنها للحيلولة دون حدوث أيّ انحراف، كما تتولّى تيسيره أيضاً بالمقدار نفسه الرسائلُ الإلكترونيّة وموقعُ جامعتنا على الشبكة، لا بدّ أنْ يقترن برغبةٍ في تحقيق إعلامٍ خارجيّ، لا يقلّ عنه أهميّة. وليس المطلوب منّا على هذا المستوى أنْ نحيط ما نقوم به بضجيجٍ إعلاميّ، ولا أنْ نُفرط

في إبراز العلاقات التي نقيمها، وحفلات الاستقبال والنشاطات التي ننظّمها، بل المطلوب منّا أنْ نفعّل قدرتنا على إنتاج أعمال متّسمةٍ بالجودة، وأنْ نُعلنَ عن ذلك. وما عسى الجامعة أنْ تنشر، في نهاية المطاف، إنْ لم تنشر نتائج أبحاثها، وثمرة تفكيرها، ونتاج إبداعها؟ نحن نعرف أنّ من واجب كلّ أستاذٍ أنْ ينشر. فالأستاذ الذي توقّف عن النشر، وعن الإبداع، هو أستاذٌ ميت. وإذا شئنا أنْ نوسّع نطاق النظر، قلنا إنّ الأستاذ الذي لم يعدْ ينخرط في مشاريع تربويّة، أو أكاديميّة، أو بحثيّة، ولا يُشارك في الفِرَق والشبكات التي تُنتج هذه الأعمال أو تلك، قد أضحى حقّاً عنصراً من عناصر النظام الجامعيّ التي تثير مشاكل. لقد سبق وذكرنا أنّ التواصل الداخليّ يؤمّن الشفافيّة. وصار الآن بوسعنا القول إنّ الإعلام الخارجيّ هو الدليل على حيويّة الجماعة الجامعيّة التي تعمل بلا كللٍ من أجل تنشئة الطلبة وتطوّر المجتمع. ويمكننا أخيراً القول إنّ جامعتنا إنّما تتجلّى في أبعادها كلّها، من خلال مسيرتها الإعلاميّة ؛ فهي تتعلّم بهذه الطريقة أنْ تؤكّد حضورها بصورةٍ جماعيّة – على الصعيدَين المحلّي والدوليّ – ؛ وهي تكتسب موقعها باعتبارها عاملاً فاعلاً في مجتمعٍ هو في تطوّرٍ دائم.

٥- بعد أنْ تعرّفنا إلى هذه الجامعة التي تجسّد قِيَماً خاصّةً مميّزَة، وتُقدّم تعليماً مُتّسِماً بالجودة، وتشكّل ديناميّةُ الحياة الطالبيّة فيها علامتها الفارقة، هذه الجامعة التي كلّ مَن فيها يتواصل وكلّ ما فيها يُعلَن عنه، لا بدّ أنْ نتابع تحقيقنا، فيبلغ بنا إلى هذا العمود الخامس، وهو أصعب الأعمدة مقاربةً، وإنْ ضاهاها أهميّةً. فالجامعة التي تريد أنْ تسلك درب التفوّق والامتياز، هي الجامعة التي عليها أنْ تُحسن ممارسة التقييم، في كلّ حالٍ ووقت.

وعلى هذه الممارسة التي تنبثق بكلّ تأكيد من الروح النقديّة التي نشأنا كلّنا عليها، أنْ تفي بعدّة اهتمامات. وفي طليعتها، بالتأكيد، حرصنا على الوضوح الذي يدعونا إلى اعتبار أنّ التقييم الذي يُمارَس بطريقةٍ سليمة من شأنه أنْ يبدّد الأقاويل، والشائعات، والمزاعم التي تطاول هذا الأستاذ أو ذاك، وهذا البرنامج التعليميّ أو ذاك. ويليه حِرصنا على الشموليّة الذي يدعونا إلى اعتبار أنّ هذا الموضوع إنّما يعني الجميع: فعلينا أنْ نقيّم الطلبة، والأساتذة، والبرامج، والمشاريع،

والشُعَب، وعلينا أنْ نُخضع كلّ ما في الجامعة للتقييم، حتّى نتوصّل بأسرع ما يمكن إلى تمييز ما هو الأجدى ؛ ثمّ أخيراً اهتمامنا بالتوجّهات، لأنّ التقييم هو الوسيلة الفضلى التي تتيح لنا رَوز مسيرتنا، وتحديد وجهة سيرنا، وتعيين الوجهة التي قد يكون من الأجدى لنا أنْ نقصدها.

فإنّه على أساس هذه العناصر كلّها يمكننا تحديد أهميّة التقييم الذي يُمارَس بطريقةٍ سليمة وضرورته، وهو التقييم الذي يعني الجميع، ولا يُمكن أنْ يُمارَس إلاّ بمشاركة الجميع أيضاً. ولا ننْسَيَنَّ أنَّ التقييم ليس أوّلاً الرقابة: ففي إطارها نقيس مدى انطباق عملٍ ما أو واقعٍ ما على معايير وقواعد محدَّدة. أمّا التقييم فمختلِفٌ، فهو تقديرٌ، وحُكمٌ قيميّ؛ ويمكن أنْ يتفاوت تبعاً للمقَيِّمين ولأطراف العالم الجامعيّ، وهو يقتضي بالتالي تعدّداً في وجهات النظر. ولا يرتبط التقييم أيضاً بالضمنيّ أو بالعفويّ – كأنْ نأخذ في الاعتبار مثلاً أنّ عدد الحضور في صفّ هذا الأستاذ أو ذاك هو أقلّ منه في صفٍّ آخر؛ أو أنّ الطلبة لم يعودوا يتسجّلون في هذه الشُعبة أو تلك، إلخ – بل يجب أنْ يكون التقييم عملاً مؤسّسيّاً، و«مسيرةً اجتماعيّةً خاصّةً، تكون محطّاتها الرئيسيّة قابلةً للمراقبة»[٢]. وهو يدعونا، من هذا المنظور إلى تحديد المعايير التي سنحكم على أساسها في دروس أستاذٍ من الأساتذة أو أعمال طالبٍ من الطلاّب، أو مشروعٍ من المشاريع، وإلى أنْ نحاول، في ضوء الأجوبة التي نحصل عليها، أنْ نصوغ في قالبٍ موضوعيّ ما ينتمي دوماً – على كلّ حالٍ – إلى عالم القِيَم.

وإنّ ما يهمّنا، في الأحوال كلّها، هو أنْ نتيقّن ممّا هو الجوهريّ : ليس المطلوب من التقييم أنْ يحملنا على إدانة أيّ إنسانٍ أو أيّ شيءٍ، بل يُتوخّى منه أنْ يساعدنا في تبيّن التغييرات التي من شأنها أنْ تمكّننا من التقدّم نحو الأحسن.

٦- بقي علينا أنْ نكتشف العمودَين الأخيرَين اللذين من شأنهما أنْ يُتيحا لجامعتنا السير قُدُماً على درب التفوّق والامتياز. فيطالعنا أوّلاً ما تنطوي عليه مفاهيمُ الانفتاح، والإبداع والتجديد ؛ ثمّ نستعرض هذا «الواجب المحتدم» الذي ينبغي له أنْ يحملنا على الالتزام بالوقائع الاجتماعيّة والسياسيّة الخاصّة بالعالَم الذي نعيش فيه.

---

(٢) AMUE. Séminaire « Évaluation des enseignements », juin 2002. Intervention de Jacques DEJEAN.

ففي شأن «الانفتاح»، لقد ذكرنا في ما سبق أنّه على صعيد العالَم الجامعيّ الراهن، ولّى زمنُ التيّارات والمدارس المنغلقة على نفسها. فلقد دخلنا عالماً يستطيع أنْ يلتقي فيه طَلَبةٌ من اختصاصاتٍ مختلفة في صفوف مشترَكة، ويستطيع الأساتذةُ والباحثون الذين ينتمون إلى مئات الشُّعَب المختلفة أنْ يتحادثوا، ويتبادلوا خبراتهم، وأنْ يكتشفوا وجهات نظر زملائهم الآخرين في الوقائع نفسها وأنْ يغتنوا بها. ولا نواجه هنا مسألة تواصلٍ فحسب، بل مسألة انفتاحٍ أساسيّ أيضاً لا يُمارَس على الصعيد الأكاديميّ فحسب، بل يشمل أيضاً المستوى العمليّ المتمثّل في اللقاء بجامعاتٍ أخرى وبجامعيّين ينتمون إلى عوالم ثقافيّةٍ أخرى. ففي ضوء هذه الرؤية، انفتحت جامعتنا على العالم الانكلوساكسوني وحتّى على العالم الآسيويّ، متجاوزةً حدودَ العالمِ العربيّ وبلدان المنظومة الفرنكوفونيّة.

علينا ألاّ نخدع أنفسنا، فلن نشعر بأنّنا مدفوعون إلى الابتكار والتجديد إلاّ بمقدار ما نقبل بممارسة سياسة الانفتاح على الصُعُد كلّها. لقد ذكرنا، في معرض حديثنا عن المنشورات أنّه على جامعتنا أنْ تُنتج، ولكنّ لا جدوى من الاقتصار في ذلك على ما يتكرّر، وعلى الوصفيّ المحض، وعلى الأبحاث السريريّة فحسب. لقد آن الأوان للانتقال إلى مستوى التأويل، والإبداع، والبحث الأساسيّ. إنّنا نعيش حالياً في عالمٍ يتمُّ فيه ترتيبُ الجامعات الكبرى على أساس عدد جوائز نوبل التي نالتها، أو عدد الأبحاث المنشورة في مجلاّتٍ تحظى بمستوىً علميّ رفيع. ولئن كنّا لمّا نبلغ هذه المرتبة، فإنّه يتعيّن علينا أنْ نخرج من قوقعتنا، وأنْ نتمرّس من جديد بإنتاج المزيد، وبتحقيق المزيد من الابتكار دوماً. إنّه لَمن دواعي الاستحسان أنْ تنال أفلامٌ تمّ إخراجها وتنفيذها في جامعة القدّيس يوسف جوائز في مهرجانٍ دوليّ؛ وإنّه لأمرٌ ممتازٌ أنْ تنال إحدى الأطاريح – في حقل الأبحاث الجينيّة – جائزةً من الهيئة المولَجة بالتنسيق بين الجامعات الباريسيّة، وقد سُلّمت إلى صاحبتها في احتفالٍ رسميّ أقيم بحضور رؤساء هذه الجامعات كلّهم؛ وإنّه لَمِن دواعي السرور أنْ نرى عدداً من مؤسّسات جامعة القدّيس يوسُف ينظّم مؤتمراتٍ رائعة هي ثمرة عملٍ جماعيّ مميّز. وإنّه لَمِن المستَحَبّ أنْ تتضاعف هذه الإنجازات الناجحة وأن تغدو علامةً دالّةً على ما هي عليه التنشئة في جامعة القدّيس يوسف. فلعلّنا إذ ذاك لا نكتفي بأنْ نكون، حسب الصيغة الموفّقة التي ابتُكرت منذ سنوات، جامعةً تمنح

طلاّبها «جواز مرورٍ إلى الوظيفة» فحسب، بل نكون أيضاً مقاماً رفيعاً للابتداع والتفوّق والامتياز في المجال العلميّ أو الأدبيّ أو حتّى الفنّي، ومختبراً نموذجيّاً للنشاطات المِهْنيّة المبتَكَرة.

٧- إنّ الانفتاح هو الذي يؤدّي إلى الإبداع والتجديد. وإنّ هذه الديناميّة التي تمّ استرجاعها هي التي تتيح لجامعةٍ من الجامعات أنْ تشعّ في محيطها الاجتماعيّ والسياسيّ، وأنْ تكتسب إذ ذاك هذا البعد الأساسيّ الذي من شأنه أنْ يتيح لها أنْ تكون خميرةً في الواقع الاجتماعيّ. يتمّ في الجامعة نقلُ المعارف والقِيَم: فإنّ من واجب كلّ فردٍ من أفراد هذه المجموعة أنْ يُدخِلَ هذه المكتسبات في صُلبِ الأساسات التي يقوم عليها المجتمع. ويتعيّن على الطلبة، والأساتذة، والموظّفين، أنْ يدركوا جميعاً أنّ عليهم أنْ يشعروا بأنّهم منخرطون في الحركة الهادفة إلى تغيير المجتمع، وحمله على اكتشاف قِيَم الحريّة، والعدالة، والمشاركة الديموقراطيّة الحقيقيّة واستعادتها، وهي الخصائص الجوهريّة للمجتمع الجديد الذي ينبغي لنا أنْ نعيد بناءه.

يتحدّث البعض في هذا الصدد عن «المجتمع المدنيّ» ؛ فتصبح الجامعة في هذا المنظور هذه الجماعة من المواطنين الذين قد يرغبون - بعدما نظّموا صفوفهم وفق أنظمتهم الخاصّة، خارج مؤسّسات الدولة - أنْ ينشطوا معاً في الجسم الاجتماعيّ باسم مُثُلٍ والتزاماتٍ تليق بمواطنٍ حريصٍ على بلده. إنّ هذا التوجّه سليم. ولكن ينبغي ألاّ يُنسينا ما يتوجّب علينا أنْ نبديه من حِرصٍ على بذل جهدنا كلّه ليُحسن الطلبة والأساتذة تحيّن كلّ فرصةٍ للانخراط في صميم الخدمة العامّة، داخل الدولة نفسها، ورائدهم السعي إلى أنْ تسود المُثُل والقِيَم التي حجبَتها إلى حدٍّ بعيد أغراضُ الهيمنة والمصالحُ الشخصيّة، الخاصّة بهذه وتلك من الفئات والجماعات.

فإنّنا لا نستطيع أنْ نتخيّل جماعةً جامعيّة لا تؤكّد التزامها الاجتماعيّ والسياسيّ في خدمة البلد والمنطقة، تماماً كما لا نستطيع أنْ نتصوّر تنشئةً جامعيّة لا تلحظ انخراطاً ملحوظاً في المِهَن.

وعلينا أخيراً ألاّ ننسَ أبداً في مطلق الأحوال، أنّ عمود التفوّق والامتياز الأخير يحيلنا على هذا الشغف الذي يجب أن يتملّكنا جميعاً فنكون للمجتمع، وللدولة، وللبلد، قوّةً للاقتراح والعمل، وقوّة تحفيزٍ وتغيير. هكذا ينبغي لنا أنْ نكون.

إنّ صورة الجامعيّ الذي يحمل طابعَ جامعة القدّيس يوسُف، والذي يقرن الصرامةَ بالشغف وإعمالَ النقد بالقدرة على الابتكار، والكفاءةَ بالانفتاح، لا تستطيع أنْ تكون صادقةً إلاّ إذا اندرجت ملامحُها كلّها في لوحةٍ جامعة، هي في تطوّرٍ وحَرَكيّةٍ متواصلَين، وهي مدعوّةٌ إلى أنْ يتجدّد بناؤها والنظر فيها باستمرار. فقوام التفوّق والامتياز هو فعلاً الأعمدة التي وصفناها للتوّ ؛ ولكنّ قِوام التفوّق والامتياز هو أيضاً قدرتنا على امتلاك ناصية أمرنا من جديد وإعادة تكوين أنفسنا باستمرار، وتضامننا بعضنا مع بعض.

***

*

اسمحوا لي بأنْ أنهي كلامي بالتشديد، بصيغة السلب، على الجوانب الثلاثة التي يجب أنْ يقوم عليها تضامُنُنا.

أرجو أنْ نوفّق أوّلاً في محاذرة الاستسلام إلى إغراءات عُجْبٍ ما، أو إلى ما يسمّيه معلّمي اغناطيوس دي لويولا «المجد الباطل»، لأنّ من شأنه أنْ يحول بيننا وبين إدراك ما يتهدّدنا دوماً من مخاطر الوقوع في التحجّر، وفي الغرور.

وأرجو أن نوفّق ثانياً في الانصراف بكليّتنا إلى محاربة مظاهر التوتاليتاريّة كلّها، التي من شأنها أنْ تُلحق الأذى بتصرّفنا. فيتعيّن علينا أنْ نقاوم هذه التوتاليتاريّة بلا هوادة على الصعيد الوطنيّ، وأنْ نتعقّبها أيضاً في صميم آليّات السلطة التي تقوم داخل جماعتنا الجامعيّة.

وأرجو أنْ نوفّق أخيراً في ألاّ يغيب أبداً عن بالنا أنّه في قلب جماعتنا الجامعيّة، يعيش فقراء، وأنّ في البلد الذي نعيش فيه، ثمّة مَن هم أشدّ عوزاً. فينبغي لهؤلاء وأولئك أنْ يكونوا الهمّ الذي يرافق أعمالنا، ويوجّه مشاريعنا، ويعجّل في وتيرة أبحاثنا.

فَلْنَبنِ معاً أعمدة التفوّق والامتياز السبعة، شرط ألاّ ننسى أنّه على هذا العمل أنْ يكون مُلكاً للجميع، وأنْ يُخضَع دوماً للنقد، وأنْ نُعيد النظر فيه مع الآخرين باستمرار، وأنْ نُعيد صنعه دوماً في خدمة مَن هم الأشدّ عوزاً في عالمنا.

شكراً لإصغائكم.

نقل هذا النص إلى العربية الدكتور هنري العويط